فيض الحق ومراتب الوجود

كتبه/ حسين بن حيدر

الوجود نسقٌ مترابط يقوم على فيضٍ واحد تتعدد مراتبه بتعدد وجوه الظهور والقابلية، لا أنه كثرة متفرقة كما يبدو في ظاهره. فالحق يتجلّى أثره في نظامٍ متدرّج يبدأ من التنزيه المحض، ويمتد حتى يبلغ عالم المعنى والهداية، لا عن حلولٍ أو امتزاج تعالى عن ذلك. ولذلك كان الفيض تعبيرًا عن دوام الصلة بين الخالق والمخلوق، مع بقاء المغايرة بينهما محفوظة؛ إذ ليس في الوجود ما يستقل عن الحق، ولا ما يشاركه في حقيقته.

وهذه المراتب هي وجوهٌ متزامنة لحقيقة واحدة، تختلف بحسب مرتبة التجلّي والإدراك، لأن الفيض الإلهي ليس حركةً تنتقل من موضع إلى موضع، فلا ينبغي أن نتصورها كأنها حوادث زمنية متتابعة في حق الله تعالى، وإن كان التتابع والزمان يظهران من جهة المخلوقات والقوابل.

1. مرتبة الأحدية والتنزيه المحض

ففي أعلى مراتب التنزيه يُشار إلى **الأحدية**؛ حيث لا اسم ولا صفة بالمعنى الذي يدركه العقل، ولا نسبة ولا تعيّن ولا كثرة. ليس ثمّة إلا حضور الذات

لذاتها حضورًا منزَّهًا عن كل حدٍّ وإشارة، لأن الإشارة نفسها نوع تعيين، والأحدية نفيٌ لكل تعيين. ولهذا تعجز العبارة هنا، فلا يكون الكلام إلا تقريبًا لمرتبة تتجاوز التصور، لا وصفًا لحقيقةٍ يحيط بها العقل.

غير أن هذا التنزيه المحض هو أصل كل ظهور لاحق، إذ تستند إليه جميع الإمكانات من غير أن يطرأ على الذات تغير أو تعدد.

2. مرتبة الأسماء والصفات

فتبدأ قابلية المعرفة من جهة الأسماء والصفات؛ لا ذواتًا مستقلة، وإنما وجوهًا دالة على الحقيقة الواحدة. فتظهر القدرة، والعلم، والإرادة، والحياة، باعتبارها تمايزاتٍ مفهومية تحفظ إمكان الفهم، من غير أن تتحول إلى كثرةٍ حقيقية داخل الذات الإلهية. وبهذا ينتظم التوازن بين التنزيه والإثبات: فلا تُمحى الصفات حتى يصبح الوجود غامضًا بلا دلالة، ولا تُثبت على نحوٍ يفضي إلى التركيب والتعدد.

3. مرتبة العلم الإلهي

ومن مرتبة الأسماء ينتقل النسق إلى مرتبة العلم، حيث تكون حقائق الأشياء معلومةً في العلم الإلهي قبل ظهورها في الخارج. فالماهيات هنا ثابتة من جهة

التعلّق العلمي، لا من جهة التحقق الوجودي، إذ لم تُفَض عليها مرتبة الوجود بعد. وفي هذا المقام يظهر أن العالم ليس بناءً اعتباطيًا، بل قائم على علمٍ محيط يضع كل شيء في موضعه ضمن شبكة كلية من الحكمة والاتساق.

4. مرتبة الإرادة والتقدير

ثم تتعلّق الإرادة بالتخصيص والتقدير، فتُمنح الممكنات حدودها ومقاديرها وشرائط ظهورها. ويظهر معنى الحكمة ظهورًا أوضح، لأن الوجود ترتبط أسبابه بنتائجه، وغاياته بمقدماته، وتنتظم الموجودات ضمن تفاوتٍ يقتضيه التنوع الذي يقوم عليه العالم. فاختلاف الطبائع والمراتب هو من شروط ظهور الحكمة الإلهية.

5. مرتبة الإيجاد والوجود الخارجي

وعند مرتبة الإيجاد تخرج الممكنات من حدّ العلم إلى ساحة التحقق، بإفاضة الوجود على قدر القابلية، لا على سبيل الانتقال المكاني أو التحول الجوهري. فكل موجود يتلقى من الوجود بحسب استعداده، والاستعداد نفسه متقرر في العلم الإلهي، لا أمرٌ طارئ على النظام الكوني أو منفصل عنه.

6. مرتبة العقول والأرواح

ولذلك تتنزّل مراتب الوجود إلى عالم العقول والأرواح، وهو العالم الذي يقترب من التجرد المحض، حيث تغلب الوحدة، والصفاء، والإدراك الكلي، من غير التعلّق الكامل بقيود المادة والكثافة الطبيعية. وفي هذه المرتبة يظهر الوجود أقرب إلى المعنى منه إلى الصورة، وأقرب إلى الإدراك منه إلى الامتداد الحسي، ولذلك كانت الأرواح أرفع اتصالًا بمبدأ الفيض وأشد قابلية لتلقي آثاره.

7. مرتبة النفوس

ثم تتنزّل مراتب الوجود إلى عالم النفوس، حيث يبدأ التعلّق بالتدبير، والحركة، والتوجه نحو العالم السفلي. فالنفس واسطة بين التجرد والمادة؛ تجمع جهةً من العلو العقلي، وجهةً من الارتباط بالطبيعة والجسد. ولهذا كانت النفس ميدان التزكية، والصراع، والإرادة، واكتساب الكمال، لأنها تعيش توترًا دائمًا بين مقتضيات العلو ومطالب الكثافة المادية.

8. مرتبة الطبيعة

ثم يبلغ التنزّل مرتبة الطبيعة، حيث تظهر الموجودات في عالم التغيّر، والحركة، والامتداد، والتكاثر، وتخضع الأشياء لسنن الزمان، والتركيب، والتأثر

بالأسباب. ومع ذلك لا تنفصل الطبيعة عن أصل الفيض، بل تبقى متصلة به قيامًا وبقاءً، لأن الكثرة الطبيعية ليست خروجًا عن الواحد، وإنما هي تنوع في مراتب التلقي والظهور. أي تكون الكثرة عبارة عن تنوع كيفية التلقي والظهور؛ كالنور الواحد يختلف انعكاسه باختلاف المرايا، لا باختلاف مصدره، فالكثرة لا تكون انفصالاً عن الواحد.

9. مرتبة العناية والقيومية

وبما أن الممكن لا يستقل بنفسه بعد وجوده، وإنما يظل مفتقراً في بقائه كما كان مفتقراً في أصل تحققه، فإن الفيض لا يقف عند حدّ الإيجاد، ولهذا عبر الحكماء عن مبدأ العناية الإلهية؛ أي دوام التدبير، والحفظ، والإمداد. فانتظام السنن، واستقرار الأسباب، وقابلية العالم للفهم، كلها آثار لهذا الامتداد المستمر للفيض. والعناية تعني حضور القيومية الإلهية في صميم نظام الكون، بحيث يبقى العالم متماسكًا وقابلًا للاستمرار.

10. مرتبة الهداية والوعي الإنساني

وفي الإنسان يبلغ الفيض ذروة ظهوره القيمي، لأن الإنسان يتلقى المعنى مع وجوده. ولهذا تتجلّى الهداية باعتبارها خطابًا يخاطب العقل والضمير معًا،

ويفتح إمكان الحرية. فالهداية كشفٌ يضع الإنسان أمام مسؤوليته، ولذلك تقوم العلاقة بين الحق والإنسان على الدعوة والبيان، من غير إلجاءٍ ولا إكراه.

فالنسق بهذا التصور يكون مكتملاً: من التنزيه الذي تتعالى فيه الذات عن كل إدراك، إلى الهداية التي تخاطب الإنسان في وعيه وأخلاقه. وليس اختلاف المراتب إلا اختلافًا في وجوه الظهور، أما الفيض فواحد في مصدره، دائم في امتداده، وما يبدو في العالم من تفاوت إنما يرجع إلى اختلاف القوابل في التلقي، لا إلى اختلاف العطاء في أصله.